المقياس: الحجاج الفلسفي2

الفئة المستهدفة: س1 ماستير فلسفة عامة

المحاضرة الثالثة: نظرية الحجاج في الفلسفة الإسلامية (فن المناظرة والجدل)

مدخل: المكون البلاغي لسلطة الحجاج آخذ في التشعب، مستقصيا مقومات الفاعليات الخطابية وهي تحقق منظومة الآداءات التواصلية بين المخاطب والمخاطب. ولا ريب أن الحجاج العقلاني موجه لفاعليات العقل، مجددا من خلالها في أساليب التواصل نحو اعتماد فني المناظرة والجدل. وقد ثبت في فلسفتنا الإسلامية قديما وحديثا التمكين الأسلوبي لكلا النمطين.

01/ الحجاج والمناظرة في الفلسفة الإسلامية:

أ ــ مفهوم المناظرة في الخطاب الجدالي: " وفق م. داسكال يشير هذا المفهوم إلى الجانب الثالث من الخطاب الجدالي. إنه يعيّن نوعا من المحاورة غير القابلة للحسم كما النقاش، وليست غير القابلة للحل كما النزاع. والسبب في ذلك هو أن المناظرة ــ على عكس الشكلين الآخرين من الخطاب الجدالي ــ لم يتم تعيّن موقعها بشكل صارم مطلقا: فهي يمكن أن تبدأ بمشكلة معيّنة، لكن بسرعة تكتسب مستويات أخرى. في المناظرة لا يمكن اعتبار أي حجة يستخدمها المشاركون حاسمة، على الرغم من أن المحاورة تخضع لمعايير التواصل العقلاني"([1]). وورد تعريف للبلاغة في معجم أكسفورد للتداولية جاء فيه ما منطوقه: " البلاغة (الخطابة): فن استعمال اللغة بصورة مؤثرة في التواصل، بما فيه إلقاء الخطب المفصلة بالتقنيات الأسلوبية مثل الأشكال البلاغية (البيانية) Figures of speech لإقناع الناس والتأثير فيهم، وبموجب هذا الفهم يمكن النظر إلى جزء من البلاغة بوصفه شكلا من الفعليات. والعمل في البلاغة ألهم بعض المفاهيم الفعلياتية المركزية مثل قواعد المحاورة Maxims conversation للفيلسوف البريطاني (غرايس) Grice"([2]). يعتبر التقابل التمثيلي من العناصر الاستدلالية البليغة التي ضمنت لكتابات الغزالي قوة حجاجية وإقناعية... ولعل الذي يشد القارئ إلى تأليفه هو تصور العالم الدنيوي والأخروي بهذا الشكل المتقابل، وهو دليل على إدراك وتمثل حقيقي للمعاني والأفكار، بل لعله كان مدركا غاية الإدراك أن تقديم تصوراته يجب أن يكون واضحا وجليا ومقنعا، فأدرك بسعة اطلاعه على علوم المنطق وعلم الكلام

(1) ـ جوليان لونجي و جورج إيليا سرفاتي: قاموس التداولية، تر، لطفي السيد منصور، دار الرافدين، بغداد، العراق، ط1، 2020، ص 72.
(2) ـ يان هوانغ: معجم أكسفورد للتداولية، تر، هشام إبراهيم عبد الله الخليفة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2020، ص 575.

والفلسفة أن الوسيلة الأمثل لذلك هي تأسيس مشروعه على أساس تقابلي. وهو بالطبع لا يصرح بذلك لكن القارئ المتمعن والمحلل يدرك أن وراء هذا الخطاب المثير والجذاب سرا ما، أداة ما لإيصال المعاني". يقول الغزالي في مؤلفه القيم 'إحياء علوم الدين' في هذا الشأن: " في القلب جنود، جند يرى بالأبصار ، وجند لا يرى إلا بالبصائر، ويتمثل الجند المشاهد في اليد والرجل و اللسان والعين، فهي كلها مسخّرة للملك الذي هو القلب، وهو يفتقر لها من أجل سفره الذي خلق من أجله، وهو السفر إلى الله تعالى، وقطع المترل الأدنى (الدنيا) لأجل الوصول للمترل الأقصى (الآخرة) ولا بد له في سفره من البدن، والبدن مفتقر إلى الغذاء وغيره من أسباب البقاء، ولذلك افتقر هذا البدن إلى جندين: ظاهر: الأعضاء الجالبة للغذاء، كاليد. وباطن: وهو الشهوة. فالأعضاء آلات الشهوات، ولدفع المهلكات افتقر البدن إلى جندين: ظاهر: الأعضاء الدافعة للأذى: اليد والرجل... وباطن وهو الغضب الذي ينتقم من عدو البدن"([3]). وإذا كان مقام المناظرات في الخطاب الجدالي في الفلسفة الإسلامية على حال من التميز والتفرد غير مقام وحال الخطابات في الفلسفات الأوربية، فإن مكمن التميز ابتدأ استثناء ببلاغة اللغة العربية، بما تحوزه من تشعب دلالات ودقة بيان وبديع، أحالت الخطاب الإسلامي إلى موسوعة معرفية اجتمعت في متونها مقومات الصناعة البلاغية الحجاجية. وقد ذكر الجاحظ في كتابه 'البيان والتبيين' نصا لأبي الأشعث يلخص مقام القول قائلا: " أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة. وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخيّر اللفظ، لا يكلّم سيّد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السّوقة. ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقّح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفّيها كل التصفية، ولا يهذبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما، أو فيلسوفا عليما، ومن قد تعوّد حذف فضول الكلام، وإسقاط مشتركات الألفاظ، وقد نظر فغي صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة، لا على جهة الاعتراض والتصفح، وعلى وجه الاستطراف والتظرّف... ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم، وأن تواتيه آلاته، وتتصرف معه أداته، ويكون في التهمة لنفسه معتدلا، وفي حسن الظن بها مقتصدا، فإنه إن تجاوز مقدار الحق في التهمة لنفسه ظلمها، فأودعها ذلة المظلومين، وإن تجاوز الحق في مقدار حسن الظن بها، آمنها فأودعها تهاون الآمنين..."([4]). لقد أبان الجاحظ عن شروط الممارسة الخطابية البلاغية، مرسما التروع النمطي الوسطي، ليلتئم الخطاب وضحا وجلاء لأفكاره ودلالات المعاني، وأشكال

(3) - حافظ اسماعيلي علوي: الحجاج، مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص 125.

(4) - الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص ص 92- 93.

التعبير المتسقة منطقيا، مجاوزا لكل أشكال الإيتوس[5*] الدونية في خطابات المعرفة السالفة. كذا نتبين أثر الأسلوب الحجاجي في القرآن الكريم، بما يستبطنه من إعجاز، نحو ما أشار إليه **أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفي سنة 403هـ** وهو من أعلام المتكلمين على مذهب الأشاعرة، وله مصنفات كثيرة، ومجادلات مع علوم الروم، عنت على وجوه معاصريه. وكان لسنا بارعا في الجدل والاحتجاج، ومن الأبحاث التي عني بها مبحث الإعجاز في القرآن، وكان دائم الحديث فيه، على نحو ما يلقانا في كتابه 'التمهيد' وخص به كتابا مفردا... وهو يستهل كتابه بالتعرض لمطاعن الملاحدة على أسلوب الذكر الحكيم مبينا أن الحاجة إلى الحديث في إعجاز القرآن أمس من الحاجة إلى المباحث اللغوية والنحوية"([6]).

ولعل الخطاب الإسلامي في أصله ومرجعه هو أسلوب اتباع لا ابتداع. وقد قال **عبد الله بن مسعود**: ' اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم'، وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كلاما معناه " 'قف حيث وقف القوم، فإنهم عن علم وقفوا، وببصر ناقد كفوا، ولهم كانوا على كشفها أقوى، وبالفضل لو كان فيها أحرى، وإنهم لهم السابقون' ... وقال الأوزاعي رحمه الله" 'عليك بآثار السّلف وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوه لك بالقول'"[7].

الجدل ونسبوية النظر في الفلسفة الإسلامية ــ الجويني نموذجا ــ: لما كان الجدال اللغوي موصولا بالمنطق. ولا ريب إذ ذاك أن الحد مادة القياس، والقياس نظرية المنطق ومركزه، فإن الجد في تصور الجويني قائم على تأصيل ماهوي ومتين للنظر. " يعرض الجويني للفظ النظر من حيث اللغة، ويثبت له سبعة معان، لأنه اسم مشترك لمعان شتى. فيقال 'للانتظار: نظر، وللرحمة والتعطف نظر...إلخ. ثم يثبت المقصود باللفظ في كتابه فيقول: 'والمراد بالنظر ههنا فكر القلب وتأمله في حال المحضور، ليعرف حكمه جمعا، أو فرقا، أو تقسيما' وهذا تعريف له أهميته إذ يبيّن ان النظر يرتبط بحال المنظور أي بواقعه،

(*) - " الإيتوس هي الصورة التي تعطيها الذات عن نفسها في الخطاب. إنها تمنح شكلا من أشكال السلطة على توطيد الحجاج في الخطاب. قد تكون هذه الصورة أقدم من الكلام علنا، أو أن تبنى في الخطاب. تقدّم (شوفان فلينو، 2002) توليفا لاستخدام هذا المفهوم في التداولية بوضوح تام، وأن إعادة رصدها بوساطة علوم اللغة يمر عبر إعادة تقييم للبلاغة غير المقيدة، التي تصنع كل مكانتها في الحجاج... قد يعتقد المرء أن الإيتوس تستند جزئيا إلى معرفة المحاورين المسبقة حول الحياة وشخصية المتحدث وافعاله، وأن هذه المعرفة السابقة تضفي أو لا تضفي وزنا على الخطاب وتتحكم بالتلقي، ويطلق هذا النوع الأول من الإيتوس ما قبل الخطابي، بينما تستند الإيتوس الخطابية إلى الثقة المستوحاة من الخطيب من خلال تأثير الخطاب". (جوليان لونجي وجورج إيليا سرفاتي: قاموس التداولية، تر، لطفي السيد منصور، دار الرافدين للنشر والتوزيع، بغداد، العراق، ط1، 2020، ص 104).

(6) - شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط9، 1965، ص ص 107- 108.
(7) - محمد المقدسي موفق الدين ابن قدامة: حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة، مكتبة الرشيد للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط2، 1997، ص 45.

فهو إذا: نظر ليس على مستوى التخيل أو التعقل المحض، ولكن على مستوى الواقع، خاصة وأنه يذكر أن الهدف هو التعرف على حكمه بالدراسة والبحث والمقارنة للمنظور فيه"([8]). ولما كان النظر موصولا بالمنظور فيه ولأجله، فإنه يجب أن يحوز على اقتدار الإيضاح العقلاني الواقعي. ولما كان النظر معبر عنه لفظا وجبت المعرفة بمترادفاته، تمييزا له عن مترادفات أخرى مشابهة له. ويذكر للنظر عدة مترادفات له هي: " التأمل، والتفكر، والتدبر، والاعتبار، والاستدلال، ذاكرا أن كل واحد من هذا يصلح أن يكون حدا لما نعنيه بالنظر هاهنا: ويرد على من يفرق بين مضمون هذه الألفاظ باعتبار أن الفكر غير التدبر والاستدلال...إلخ، مبينا أنه لو كان هناك فرق فهو فقط في قدر التقدم في النظر وليس في جنسه، فقد يقل النظر ويكثر، أو يكون المرء في بدء استدلاله..."([9]). ومن النظر يصادر الجويني المناظرة، ليصلها بالجدل والجدال والمجادلة. وقد قال : " لا فرق بين المناظرة والجدال والمجادلة والجدل من ناحية الاصطلاح، أي في عرف العلماء بالأصول والفروع، وإن فرّق بين الجدل والمناظرة على طريق اللغة: لأن الجدل في اللغة كلمة مشتقة من غير ما اشتق منه النظر... كما ينبه إلى أن المجادلة مفاعلة من الجدل في اللغة، وأن الأمر غير ذلك في الاصطلاح، إذ أن الجدل و الجدال أيضا لا يكون إلا بين اثنين تماما كالمجادلة... ويحرص الجويني على إثبات قيمة النظر في مختلف مجالات العلم الديني منها وغير الديني، إذ يقول: ' ويفزع العقلاء إلى النظر والمناظرة في أديانهم ومعاملاتهم ومعاشراتهم"([10]). وإلى ذلك نصل إلى عرض الجويني إلى تحديد أبرز أسس الجدل الخاصة، والتي تتلخص عموما في " إظهار المتنازعين مقتضى نظرهما على التدافع والتنافي أو ما يقوم مقامها من الإشارة والدلالة. وهذه الأسس هي: 1/ أن هذا التعريف بين أن الجدل لا بد أن يكون بين طرفين وهذا التوكيد يتضح أكثر وأكثر من نقاش الجويني لحقيقة الجدل باستعراض تعريفات علماء الأصول والفروع للجدل ونقدها...2/ ثم إن كلا من الطرفين له موقف من المنظور فيه مخالف لما عليه مجادله، يؤكد ذلك بناء بناء حد 'الجدل' على مفهوم التنازع بين مقتضيات كل نظرة... 3/ ثم من أسس الجدل أن يتم الجدل على التدافع والتنافي. ويتبين ذلك أكثر وأكثر عند رفض الجويني قول من قال: 'هو نظر مشترك بين اثنين' على اعتبار أن هذين الطرفين يمكن أن يشتركا في التعاون والتوافق. فالتدافع والتنافي ضرورة في الجدل عنده، والأمر بالمثل بالنسبة لمن قال: 'هو طلب الحكم بالفكر مع الخصم'"([11]).

---

(8) - الجويني إمام الحرمين: الكافية في الجدل، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة، مصر، 1979، ص 42.
(9) - المرجع نفسه، ص 43.
(10) - المرجع نفسه ، ص 44.
(11) - المرجع نفسه، ص ص 48- 49.

خاتمة: خطاب الفلسفة الإسلامية بلاغي بما أنبأتنا به الدراسات التاريخية، وكذا من خلال مختلف مراساتنا اللغوية، كانت البلاغة في أسمى تشكيلاتها، وهي تنجلي عبر مناظرات دينية فيها من الاتباع ما يؤصل لأصالة البلاغة الحجاجية الإسلامية. كذا كان الجدل والمجادلة سمة الأبحاث الفلسفية الإسلامية (النظر بالعقل) الذي طبع الجدالات المعرفية في مسائل شتى.